ورطـــة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

خرجت من بيتي في صباح يوم ، ومعي — في جيبي — ثلاثون قرشاً ليس إلا ... وقالت لي نفسي ، وأنا أضع الطربوش على رأسي بيد ، وأفتح الباب بيد :

« إنك يا هذا ذاهب الى عملك فعائد منه الى البيت لتتغدى ، فما حاجتك الى أكثر من هذا القدر ؟ اقنع به ، فان امتلاء اليد يغري بالانفاق ، وكفك كالغربال — كثيرة الخروق ، وواسعتها جدا — ولو رزقت مال قارون لأتيت عليه كله في بعض يوم ، فانت والله أحق الناس بالحجر ! »

فوقفت مغيظاً ، فما يليق أن تصبحني نفسي بمثل هذ الكلام القبيح . وكيف بالله أؤدي عملي إذا كنت أسمع مثل هذا التأنيب على الريق ؟ وقلت لأزجرها عن هذا السلوك المعيب :

« بدأنا ؟ يا فتاح يا عليم ! ألم أنهك عن هذا ألف مرة ! »

فراحت تكابر وتقول : « وهل قلت إلا إنك مسرف ؟ »

فصحت بها من الضجر : « مسرف كيف ، يا ستي ؟ وهل ما أكسب يكفيني حتى أعد مسرفاً ؟ »

فالت : « إنه لايكفيك لأنك مسرف ... مخروق الكف ، وفي دون ما تكسب فوق الكفاية »

قلت : « كلام فارغ ... ولعب بالألفاظ ... هذه يدي ليس فيها خرق واحد ، وإني لأحب المال حباً جماً ، وأحاول أن أختزنه وأكنزه ، ولكن ماذا أصنع ؟ كلما دخلت البيت قالوا هات ... هات ... ولست أسمع وأنا في البيت إلا قولهم «هات... هات!» لا أحد يقول «خذ !» كلا... هات صابوناً ... هات بناً ... هات أحذية وطرابيش ... كأني مصلحة تموين ... حتى وأنا نائم أسمع هاتفاً يقول لي : «هات» فأستيقظ مذعوراً ... وإذا لم أذهب الى البيت — أعني إذا فررت منه — فلا مفر من الانفاق في حيثما أكون ... لا أحد يقبل أن يعطيني شيئاً بالصلاة على النبي .... كلا .... لم تبق في الدنيا مروءة ولا كرم ولا نقوى ولا .....»

وأمسكت ، فقد رأيت أحد الجيران يرقى في السلم ، فخفت إذا سمعني أتكلم أن يحسبني مجنوناً ، ولم أر أحداً غيري يحادث نفسه ، فيظهر أنهم لانفوس لهم . . أعني أن نفوسهم لاتتعبهم ولايسرها التنغيص عليهم

وجاء الظهر ، وزارني صديق عزيز طال غيابه عني ، فقلت له وأنا أنهض معه :

« تعال نتغدى »

قال : « أين ؟ »

قلت : « أين ؟ في البيت عندنا ! »

قال : « بيت ؟ لا لا لا . . . تعال الى المطعم »

قلت : « مطعم ؟ ياخبر أسود ! لا ياسيدي ! لا آكل في مطعم ولو شنقوني »

قال : « كيف تقول ؟ لماذا تتكلم بهذه اللهجة ؟ »

قلت : « يا أخي بالله عليك دع المطاعم فان آكلها لاهنيئة ولامريئة ، وتعال معي الى البيت »

وكنت وأنا أدعوه الى ذلك أرجو أن يرضى ، وأخاف أن يأبى ، وكيف لا أخشى وكل مامعي ثلاثون قرشاً لاتكفيني وحدي ، فكيف به معي وهو ضيفي ؟ وخطر لي أن أصارحه ، ولكني استحييت ، وقلت خير من ذلك أن أحتال حتى أقنعه وأجره معي ، والتفت الى نفسي وقلت لها همساً :

« أرأيت ؟ هل يعجبك هذا ؟ هـــذه الفضيحة تسرك ؟ مسرف أنا ؟ هيه ؟ أنا أبعثر المال باليمين والشمال ؟ أنفقه بلا داع .. أرميه في التراب ! بالله ما ذا كان يضيرني أو يضيرك لو أني خرجت بجنيه مثلاً بدلاً من هذه القروش القليلة التي لاتنفع ؟ »

وبدا لي أن خير ما أصنع في هذا الموقف هو أن أكون رجل عمل لا رجل كلام ، فشددت ذراعه وقلت : « تعال ! »

قال : « لماذا تجرني هكذا ؟ الى أين ؟ »

قلت : « الى البيت . . . لا فائدة من الكلام تعال »

وشاء سوء الحظ أن تمر بنا في هذه اللحظة مركبة قديمة يجرها جواد ان هزيلان معروقان ، وأبى السائق اللعين إلا أن يتلكأ ويومىء الينا بالسوط الذي في يمينه أن نركب ، ويقول :

« أجي يا بك ؟ »

فصحت : « لا لا لا لا . . . » وأشرت اليه أن يذهب عنا ، وأن يبعد جداً ، وأن يسرع في ذلك

فقال صاحبي : « لا ، يعني ماذا ؟ إنتظر يا رجل . . تعال نركب فاني متعب»

قلت : « تركب ؟ »

قال : « نعم . . الى مطعم الـ . . . تعال . . »

وشدنى ، وكان أقوى منى وأضخم ، فتعثرت وراءه وأنا أقول:

« يا أخى ، التزام أسرع من هذه الخيل المحنطة . . . »

قال : « لا ، هذا أحسن »

وركبنا ، وضرب الرجل جواديه بالسوط ، فصحت به :

« يارجل ، حرام عليك ، انزل وجرها ! »

فابتسم الرجل ، وأقبل على اللجم يشدها ويرخيها ، ويخرج وهو يفعل ذلك أصواتاً ليس فى الحروف المعروفة ما يترجمها ، فلست أدرى أهى جه جه ، أم تـه تـه ؟ أم ماذا غير ذلك ؟ وأدرت وجهى الى صاحبى وقلت له :

« كيف تكتب هذا ؟ »

وقلدت صوت السائق ، فقال : « لاتكتب »

قلت : « ما أشد قصور اللغة إذن ، وأقل وفاءها بمطالب التعبير ! »

قال : « أى تعبير يا أخى ؟ مالك اليوم ؟ »

قلت : « ألست ترى الخيل تفهم عنه ؟ فهى لغة تفهمها ، ويجب أن نعرف كيف نكتبها ونرسم الرموز لنطقها ، وإلا كان هذا منا قصوراً »

قال : « طيب . . . طيب . . . »

فقلت محتداً : « كيف تقول طيب ؟ أيجوز أن تسع اللغة كل هذا الذى تسمعه وتعجز عن أداء هذه الأصوات القليلة ؟ »

قال : « نعم يجوز . . »

قلت : « كيف تقول ؟ »

قال « نعم ، لأنها لغة مجعولة لأبناء آدم ، لاللخيل والحمير »

قلت « ولكن الخيل ليست هى التى تنطق بها ، بل هذا السائق الآدمى »

قال : « اسلكه مع الخيل والحمير ، وأرح نفسك وأرحنى »

فسكت ، فما بقى لى بعد هذا كلام ، وبلغنا المطعم الذى اختاره فترجلنا ، وأنقدت السائق خمسة قروش — قطعة واحدة ، خرجت من عينى ، لا بخلا ، فما بى بخل ، وإنى وحقكم لكريم مضياف ، وقد سمعتم نفسى تنكر على إسرافى وتبذيرى ، وتزعمنى لذلك من إخوان الشياطين ، ومن كان لا يصدق فليجئنى بمال ، وليرى كيف أنفقه له ، ولا أبقى لنفسى منه دانقاً !

وجلسنا إلى مائدة نظيفة ، وجاء الخادم بورقة كبيرة مطوية فيها ألوان الطعام — أعنى أسماءها — فنحيتها عنى بأصبعى ، وقلت له : « اقرأ واختر لنفسك »

قال : « وأنت ؟ »

قلت : « ابدأ بنفسك ياسيدى ، واتركنى لاختيارى بعد ذلك »

فرفع الورقة أمام عينيه ، واضطجعتُ أنا ، وجعلت أنظر اليه ، وأجيل عينى فى جسمه الضخم الهائل الأنحاء ، وأسأل ماذا ترى يكفى هذه المعدة الكبيرة ويملأ هذه الكرش العظيمة ؟ وماذا يكون العمل إذا جاوز الأمر ما معى ؟

ورمى إلى الورقة وقال :

« الأختيار صعب ، فاطلب لى أنت ما تشاء ! »

فتناولت الورقة ، وأنا فرح مسرور ، وقلت فى سرى : « يامفرّج الكروب يارب » وصرت أنظر فى الأثمان ، فأهمل ماثمنه غالياً ، وأقصر الأختيار على كل معتدل الثمن أو ضئيله وقلت له :

« فى المطاعم يحسن انتقاء الدجاج والسمك ، مخافة أن تكون تلك مخنوقة وهذه قديمة ، ولست أرى هنا ما يصلح للأكل إلا المرق والأرز والخضر والفاكهة ، والجو اليوم حار جداً ، فيحسن الأجتزاء بالخفيف من الطعام ، والذى لا خوف من الغش فيه »

فخطف منى الورقة وهو يقول : « ياأخى مالك أنت ؟ أهى بطنى أم بطنك ؟ وصحتى أنا أم صحتك ؟ ومن قال لك إنى مترف يؤذيه الحر ويثقل فيه على معدته اللحم والطير والسمك ؟ »

قلت : « إنما أخاف عليك الموت ، فما زلت شابا ، وقد مات منذ أيام شاب من إخواننا من أكلة . . . »

فقاطعنى قائلا : « لا فائدة . . لا فائدة . . سآكل ماأريد على رغم أنفك »

فهززت رأسى وقلت : « شأنك ، إن همى كله ألا يصيبك ما أصاب ذلك الموظف الذى أكل سمكة متعفنة ... »

فصاح بى : « ياأخى اسكت . أى حديث هذا على الطعام ؟ »

قلت : « سكت ياسيدى ، ولكن لا أقل من أن تشاورنى لأنصح لك »

قال : « كلا . . . ولا هذه . . . وهل أنا مسئول منك؟ »

قلت : « إنك ضيفى وأنا مسئول عنك »

قال : « متنازل ... اسكت بقى »

فلولا أن كرمى طبع لا تطبع ، لسرنى هذا القول ، ولكنى أبيت أن أقبل « تنازله » ودعوت الخادم وقلت لصاحبى :

« مره بما تشاء . . . واطلب منه كل الألوان التى يقع عليها

اختيارك دفعة واحدة ، ليعدها لك ، من الآن ، ولا يعود يعتذر بأن هذا فرغ ، وهذا لم يبق منه شيء »

فوافق ، وكانت غايتي من هذا الاقتراح أن أعرف على وجه الدقة كم يكلفني إطعام ضيف ، وهل يبقى في جيبي بعد ذلك شيء آكل به ، أم ينبغي أن أصوم إكراما له وإيثاراً ، فوجدت أن جملة الثمن بلغت تسعة عشر قرشاً ، فقلت في سري « أما والله إنه لشره نهم ! أما كان يستطيع أن يكتفي بلونين ؟ إنه لا يبقى لي بعد ذلك إلا ستة قروش تذهب منها اثنتان تجزية للخادم ، وقرش لابد منه لركوب الترام الى البيت ، فالباقي ثلاثة قروش ، ومايدريني أنه لا يستمرئ نعمتي فيطلب قهوة أيضاً ، إذن هما قرشان اثنان لا أملك لنفسي غيرهما... حسن... فليكن كل طعامي تفاحة »

واستغرب صاحبي زهدي في صنوف الأطعمة ، واكتفائي بتفاحة ، فقلت له « يا أخي ألم أقل لك إني أكره أن آكل في مطعم ؟ ولقد نصحت لك فهل كنت تظنني عابثاً ، أم حسبتني من جماعة «يا أيها الرجل المعلم غيره » ؟ لا ياصاحبي . وقد تركتك لرأيك ، فاتركني لرأيي ! »

وكان يأكل وأنا أدخن وأتكلم ، ثم صفق فذعرت وسألته ماذا تريد ؟ »

قال « أليس عند هؤلاء القوم نبيذ جيد ؟ »

فقلت بسرعة « لا لا لا ... إنه خل — احذر »

قال « خل ... عسل ... لا بد لي من النبيذ »

فضربت كفاً بكف ، ولولا أن المكان غاص بالناس للطمت وجهي ، فنظر إلي مستغرباً وسألني : « مالك ، لم أرك قط على مثل هذا الحال ؟ »

قلت : « يا أخي أتريد أن تفضحني »

قال : « أفضحك ؟ لماذا ؟ »

قلت : « تشرب النبيذ وأنت مني ؟ ماذا يقول الناس عني إذا رأوك ورأوني »

قال : « إيه ؟ أنت تخجل أن يراك الناس مع صاحب يشرب خمراً ؟ متى تغيرت عن عهدي ياصاحبي ؟ »

قلت : « اليوم ... »

قال : « اليوم ؟ فقط ؟ »

قلت : « على كل حال ، هذا لا يعنيك ... اطلب ما شئت إلا الخمر ... فلن أدفع ثمن قطرة »

فأطال التحديق في وجهي ، ثم قال :

« ليس هذا مربط الفرس .. ماهي الحكاية ؟ قل بصراحة ! »

فلم أعد أطيق الكتمان ، فقد كانت أمعائي تتقطع من الجوع ، وعيني تكاد تخرج من المغيظ ، وشق علي أن أراه يلتهم الطعام وأنا جالس أنظر وأتضور وأتحسر ، فانفجرت قائلاً :

« الحكاية ياأحمق ياغبي أن كل مامعي في هذه الساعة المنحوسة التي تجلس فيها أمامي خمسة وعشرون قرشاً ... وأنت تأكل كأنك ماذقت طعاماً منذ قرن كامل ، وتريد فوق ذلك أن تشرب نبيذاً ! شيء لطيف جداً ؟ ومن أين أجيء بثمن النبيذ الذي تفرغه في جوفك ؟ أرهن ثيابي ؟ ؟ أم أطعمك وأسقيك ، نسيئة ؟ لو كان في رأسك هذا ذرة من العقل والفهم ، أو في عينك تظر لفطنت إلى الحقيقة ولم تحوجني إلى الكلام ، ولكن كل جارحة فيك معدة ... »

فقال بعد طول الأصغاء : « أهوذاك ؟ »

قلت بغيظ : « نعم هوذاك يا أيها الكرش ؟ »

فلم يجب بشيء وصفق فجاء الخادم فقال له :

« اطعم هذا الجوعان المسكين »

فقلت له : « قبحك الله ! ألا بد أن تفضحني ؟ »

قال : « ألا تستحق ذاك ؟ »

قلت : « ليس هذا وقت الجدل ... هات دجاجة سمينة »

قال : « فان الدجاج مخنوق . . ! »

قلت : « لاتكن كزاً لئيماً . . . اذهب ياهذا وهات الدجاجة السمينة . . . والله لا بدأتُ إلا بها »

قال : « بدأت ؟ »

قلت : « نعم ، ثم بسمك »

قال : « إنه قديم ، متعفن »

قلت : « فليكن من عهد الفراعنة ، فان الجوع لا يرحم »

قال : « قاتلك الله . لقد كنتُ أشتهي الدجاج والسمك فصرفتني عنهما بتهويلك وخوفتني منهما »

قلت : « ما في بطني في بطنك ! »

ولما عدت إلى البيت قلت لنفسي وأنا أبدل ثيابي لأستريح « أظن أنه لا يسعك أن تتهميني بالاسراف في يومي هذا ، فقد عدت بأربعة وعشرين قرشاً من ثلاثين خرجت بها »

فابتسمت ، وهزت رأسها راضية ، فقلت :

« ولكنه موقف لا يحتمل إذا تكرر ، ولن أطاوعك بعد اليوم »

ابراهيم عبد القادر المازني